الفصل الحادي عشر
"إخبارية جديدة"

عاد هشام أدراجه، ولم يكن مدركًا لحجم نيران الغضب المتأججة في انتظاره، فما إن فتح باب الشقة حتى تراءى له منيرة في قمة سخطها تُردد لغطًا حانقًا، تحاول حنين تهدئتها دون جدوى؛ فأطلق زفيرًا غاضبًا يعرف جيدًا ما حصل في فترة وصوله إلى المنزل، فلابد وأن اتصلت بها أختها تشكوه، ومن المؤكد أنها روَت لها من الحكايات ما يبرزُه شيطانًا لعينًا بطَشَ بملاكها البريء، كان أسلم حل فكر به من وجهة نظره هو الانسحاب إلى غرفته دون خوض نقاش لن يجدي، وخاصة أن منيرة لن تسمع له في حالتها تلك، لكن منيرة لم تدعْه ينفّذ خطته؛ فاستوقفته بصوتها الجهوري وانطلقت نحوه في هياج، ولحقت بها ابنتها؛ فصرخت منيرة به:

- استنّى يا حضرة الظابط، رايح فين؟ ولا انتَ كبرت علينا خلاص ومابقتش مستعنينا؟

أجفل هشام لحديثها المرير، وردَّ بانزعاج:

- منيرة، أنا فيّا اللي مكفّيني ومش ناقص.

و همّ بالمغادرة، لكنها أمسكت به من ذراعه؛ فالتفت إليها، وأردفت:

- كل اللي بتقوله ده مش هيفيد بحاجة، انتَ ازّاي تعمل كده في بنت أختي؟ حد قالّك إنها جاية من الشارع عشان تهينها بالشكل ده وترميلها

الدبلة في وشها؟ لازم تحرجني وتخلّيني في نص هدومي قدّام الناس؟ عايز تخسّرني أختي اللي مابقاليش غيرها في أهلي؟

تدخّلت حنين: إيه يا ماما الكلام ده واحنا رُحنا فين؟!

صاحت منيرة:

- انتوا! انتوا إيه! البيه اللي ربّيته وكبّرته واعتبرته ابني وسندي! لكنه مابيشوفنيش غير مرات أبوه اللي جات خدِت مكان مامته ولا بيعملّي خاطر في حاجة.

كاد هشام يرد، لكن حنين أومأت له بأن يتحكم بزمام غضبه أمام غضب منيرة حتى لا تزداد الأمور سوءًا، فشدّ قبضته وتركهما مغادرًا إلى غرفته حتى لا يفقد أعصابه؛ فمهما قال في ذلك الوقت لن تستمع إليه منيرة، ومع ذلك استمرت هي في صياحها حتى شعرت بالغثيان، وبدأت تترنّح، تتّسع مقلتيها أقصَى مداهما في محاولة لتثبيت رؤيتها المنقلبة رأسًا على عقب، وفجأة سمع هشام صوت صرخة حنين وارتطام شيء ثقيل بالأرض، فتح باب غرفته بفزع؛ فألفَى منيرة مسجية على الأرض تحرك رأسها يمينًا ويسارًا محاولةً فتح عينيها المتشبعتين باللون الأحمر القاني، تلهثُ وترتجفُ أوصالها، والألم يكاد يفتك برأسها وقلبها، يدكّ صدرها دكًا بنبضاته المستغيثة، بينما تصرخ حنين هلعًا:

- ماما! ماما! مالِك يا ماما؟ هشام، الْحَق ماما بسرعة.

هرع هشام إليها والقلق يعتصر قلبه، يمرّر يده بفزع على وجهها تارة وكتفها تارة أخرى، مضَت حنين تزيد في بكائها، بينما حملَ هشام منيرة وأدخلها الغرفة قائلًا في عجلة:

- جيبيلها مياه بسرعة وخليكي جنبها، هطلَع أنادي لدكتور إيهاب.

بعدما فحصها الطبيب وأعطاها الأدوية المطلوبة، خرج ليلتقِيه هشام متسائلًا بوجلٍ:

- ها يا إيهاب، مالها؟

- اهدا يا هشام جات سليمة الحمد لله، ضغطَها كان عالي، كانت بداية جلطة بس الحمد لله قدّر ولطف، أنا ادّيتها أدوية هتخلّيها كويسة على الصبح إن شاء الله، بس حاولوا تبعدوا عنها الضغط النفسي قدر المستطاع.

تنهد هشام بارتياح مستطردًا:

- إن شاء الله، شكرًا يا إيهاب تعبناك معانا.

- العفو، ده واجبي.

أومأ هشام بامتنان، وودَّع الطبيب، ثم عاد إلى حنين القابعة بجانب أمها تبكي؛ فضمّها إليه مربتًا على رأسها، وقال بنبرة حانية:

- ماتخافيش الدكتور طمنّي، هتبقى كويّسة بإذن الله، قومي يلّا انتِ روحي لبيتك، وأنا هفضل جنبها.

ردت باحتجاج:

- لا، أنا مش هسيب ماما...

قاطعها هشام بحزم:

- حنين! أبوس إيدك، مش مستحمل عنادِك انتِ كمان، يلّا يا حبيبتي قومي روّحي، وأنا هطمّنك عليها كل شوية.

لم يكن أمامها سوى الرضوخ لطلبه؛ فنهضت وقبّلت جبهة والدتها ثم غادرت.

ومن ثمَّ امتثل هشام على المقعد بجانب فراش منيرة، يتأمّلها بندم، يلوم نفسه على حالتها وينقم على لارا أيضًا، ويسأل منيرة لمَ لا تتفهمه؟! ولماذا لم تناقشه وتأخذ بأسبابه؟ فهو ليس بطائش ولا معتوه كي يفسخ خطبته بلا سبب أو داعٍ، ظلّت الأفكار تراوده، وتعاودُه من كل حدبٍ وصوب حتى باغته النوم فخنع لسلطانه.

*****

تسلّلَت أشعة الشمس عبر النافذة؛ فأيقظَت منيرة محاولة فتح عينيها بوهن، تُصدرُ أنّاتٍ خفيفة استيقظ على إثرها هشام فزعًا؛ فتبينت أنه كان نائمًا بجوارها طيلة الليل على كرسي خشبي من شأنه تهلكة وإيلام ضلوع من يمكث عليه طويلًا، فما بالك بمن نام عليه.

انتصب رهبة هاتفًا بصوت يُضنيه النوم:

- منيرة انتِ كويسة؟

وهمّ بمساعدتها على الجلوس، واضعًا الوسادة خلف ظهرها، لكنها أبعدت يده بجفاء وتجلّت أمارات الضيق على وجهها؛ فندّت عنه تنهيدة

أسى، وجلس إلى جانبها، وأمسك يدها برفق؛ فبادرت بسحبها، لكنّه أمسكها بين كلتا يديه مربتًا عليها بحنوّ، فعلى الرغم من أنها بمثابة أمّه إلا أنها في غضبها لا تمثّل له فارقًا بينها وبين حنين أخته الصغيرة، فـعلى كلٍ ما هي سوى نسخة مصغرة عن والدتها، رفع هشام وجهه وقابل نظراتها اللائمة قائلًا:

- منيرة، انتِ اللي ربّتيني وكبرتيني زي ما قولتى امبارح، يعني أكتر واحدة أدرى بيّا وعارفاني كويس، هل أنا ممكن أظلم حد؟ ردّي عليّا لو سمحتِي!

هزت رأسها نافية؛ فاستكمل حديثه:

- طب مستنيّة إيه منّي لما تكذب عليّا وتقولّي إنها في محاضرة، وأكتشف إنها وصاحبتها مع شلة شباب فاسدة في عربية لوحدهم.

- بس مامتها ماقالتليش كده.

- وأنا مابكذبش يا منيرة، ده اللى حصل بالظبط.

- طب مش يمكن انتَ فهمت غلط؟

- دي مافيهاش سوء فهم يا منيرة، وحتى لو.. أنا أسلوب حياتي مختلف عنها، ومش هينفع نكمل..

قاطعته منيرة بحزم:

- وبنت أختي متربّية كويس يا هشام، ومش هيهُون عليّا تكسرلها قلبها ويطلع عليها سمعة وحشة بسببك، الناس تقول إيه؟ اتفسخِت

خطوبتها بعد عشر أيام من خطوبتها ليه؟ مش هسمحلك تدمّر لها مستقبلها، انت فاهم؟

كاد هشام يطلق العنان لانفعاله، لكنه أمسك عن ذلك حين لاحظ الرعشة تسري في أوصالها، بَيْدَ أن انفعالها أثّر عليها، وذاك ما حذر منه الطبيب؛ فأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: طب اهدي واللي انتِ عايزاه هعملهولك.

أوشكت منيرة على التحدث، لكن أسكتها صوت رنين هاتفه؛ فتناوله ليجدها مكالمة من سامر:

- أيوه يا سامر؟
- صباح الخير يافندم، أنا آسف إني اتصلت، وحضرتك أجازة النها..
- انجز يا سامر فيه إيه؟
- جالنا إخبارية عن مكان واحدة ساكنة فيه بأوصاف كارولين.

انتفض هشام من مكانه وقال:

- أنا جاي حالًا.

أغلق الخط، وعاد إلى منيرة بتوسّل:

- معلش يا منيرة، أنا آسف، لازم أنزل حالًا، هكلم حنين..

في تلك الحظة، سمعا باب الشقة يفتح لتدخل منه حنين وابنها عمر، فقال هشام:

- جيتي في وقتك، خليكي جنبها ولو احتاجتوا أي حاجة كلّموني، أنا مش هتأخر.

وغادر مسارعًا إلى غرفته، ومضى عشر دقائق حتى غادر المنزل إلى عمله في حماسة، لكنه كان يفكّر طيلة الطريق في أمر الإخبارية؛ فقد تهدم شكوكه أو تؤكدها، هذا سيتوقف على مدى صحة الإخبارية، وهل هي صحيحة أم عملية تمويه ليس إلا؟

انطلق هشام وسامر إلى المكان المستهدف، وقد أخبره سامر أنه قد تم التعرف على كارولين من قِبل أحد الضباط حين جاء للقبض على شباب يسكنون على بعد أمتار قليلة من مسكنها، وقد بلّغ عنهم رجل يدّعي أنهم يصورونه وزوجته من النافذة، وحينما ألقوا القبض عليهم وجدوا بحوذتهم أسلحة؛ فكانوا تابعين لجمعيات إرهابية، وفي ذلك الحين كانت الفتاة عائدة من الخارج، وارتاب فيها الضابط بسبب ملامحها الأجنبية وهيئتها التي لا تلائم تلك المنطقة، وما لبثَ أن قارَنَ أوصافها بالفتاة المطلوبة، ومن ثم وصلتهم منه الإخبارية.

وصل هشام وسامر البناية المستهدفة منطلقِين إلى الطابق الثاني، حينذاك أدهشهما أن باب الشقة مفتوح؛ فقام هشام بتلقِيم مسدسه وتحرك بخطوات تحذيرية، وسامر من خلفه يحمي ظهره، ومن ثمّ فتح هشام الباب فجأة يُشهر مسدسه تحسبًا لوجود أي شخص، لكنه ما من أحد في الصالة؛ فأشار لسامر بأن يبحث في جهة وهو من الجهة الأخرى، وبعد دقائق عادا إلى الصالة خاليا الوفاض.

لابد وأنها هربت.

اعتصر هشام قبضته، وشدَّ فكّه بقوة ساخطًا؛ فقد تأكدت شكوكه الآن، لكن ما باليد حيلة؛ فهو لا يملك دليلًا لإدانة من هو بصدد اتهامه، وبينما كانا على أهبة الذهاب لمح هشام أقصوصَة دعسها بقدمه؛ فانحنى والتقطها، حينذاك كان سامر مصدومًا مسبهلًا، يحملق بتلك الورقة، ثم بادر قائلًا:

- فيها إيه الورقة دي يا فندم؟

****

في منزل طارق عمران.. خرجت جنة من غرفتها تجترُّ قدميها بنعاس ما زال يسيطر عليها، رغم أن الوقت قد مضى ظُهرًا، ألقت التحية بتثاؤب على والديها، ومالبثَت أن سمعت صوتا ثالثًا يرد عليها:

- نموسيتك كحلي يا هانم، لو أعرف إنك هتصحي الظهر ماكُنتُش ضيّعت يوم من الشغل، وماكانْش اتخصملي.. روحى يا شيخة ربنا.. يخليكي ليا.

دمدمَت جنة وما زالت تحملق بابن خالتها:

- يا ربي! ما أنا كنت مستريّحة من جنانه.

فجاءها صوته: بتقولي حاجة؟

ردت بثقة:

بقول وإيه اللي خلّاك تغيب من شغلك؟ بتاخدني شماعة تعلق عليها كسلَك؟

تقدم منها أحمد قائلًا بعتاب مصطنع:

- تصدقي أنا غلطان إني شايل همك وقولت آجي أسلّيكي بدل ما انتِ محبوسة في البيت كده زى القطط.. لا اخس.

قال كلمته الأخيرة وهو يلتقِم بفمه فصًا من البرتقال الطازج؛ فهزّت جنة رأسها متضاحكة وتركته ودلفت حيث تأخذ حمامًا ساخنًا ينعش يومها.

*****

في مكتب اللواء "منير ثروت"...

كان هشام ماثلًا أمام قائده بوجلٍ، مطأطأ الرأس يتلقّى توبيخًا من معلمه الذي لم يفتأ يهدأ حتى يُلقّن تلميذه النابغ درسًا لن ينساه بعمره:

- ازّاي يا سيادة الرائد تغلط غلطة زي دي؟ ده انت ماعملتهاش وانت ملازم تعملها دلوقتي! ترفع مسدسك على المواطنين وترهبهم؟!

حاول هشام إحكام رباطة جأشه، مدركًا لجسامة خطئه؛ فلم يكن بموقف يمكنه به أن يبرّر فعلته تلك؛ فآثر الاعتذار وتلقِّي العقاب الذي سيُفرض عليه.

- أنا عارف يا فندم إني غلطان، وأوعِد حضرتك إن اللي حصل ده مش هيتكرر تاني، وجاهز لأي عقاب حضرتك تشوفه حتى لو هتحوّل للتحقيق.

تنهّد اللواء بحنق، ثم أردف:

- أنا هكتفي المرة دي بلفت نظرك، وبنصحَك تسيطر على انفعالك مرة تانية، القضية محتاجَالَك ومفيش وقت نضيعه.

- متشكر يا فندم، وإن شاء الله أكون عند حسن ظن سعادتك.

- تقدر تتفضل، وعايز أشوف تقدّم في القضية يا هشام؛ ماعندناش وقت!

- ماتقلقش سعادتك.

خرج هشام من مكتب اللواء يسُبّ ويلعن في لارا التي جعلته يستمع إلى تلك الإهانات بسبب أشخاص تافهين.

غادر إلى منزله، وما لبث أن فُتحَ الباب حتى وصل مسامعه حديث منيرة تشكوه لزوج ابنتها عماد بلا كَلَل أو ملل من تكرار الحديث، وهو يصطنع الإنصات والاهتمام، بينما كان عمر نائمًا على الأريكة وحنين تشاهد زوجها من المطبخ بشماتة، لقد أُصِيب المسكين بالصداع.

ألقى عليهم هشام التحية، ثم قال لعماد بنبرة متثاقلة:

- عماد، تعالى عايزك شوية جوّه.

نهض عماد فرحًا مهلّلًا:

- يااه نسيبي حبيبي، ماتعرفش قدّ إيه وحشتني الجملة دي.

ضحك هشام رغمًا عنه؛ فكان يدرك تمامًا ما تُكنه سريرته؛ فقد كان منقذًا له في تلك اللحظة لا أكثر، فرد هشام مداعبًا:

- دلوقتي عجبتك الجملة دي!

ما لبث أن قفز عماد متجهًا إلى النافذة بغرفة هشام قبل أن يتورط قائلًا:

- أنا جوّه بقى، لو عايزنى ماتجيش.

هز هشام رأسه ضاحكًا بأسى؛ فقد تثاقَلَت عليه الهموم لم يعد يعرف مَن يُرضي؛ بيته أم عمله، وكلٍ عليه عاتٍ مَلوم؛ فلحق بعماد مغلقًا عليهما باب الغرفة، وأومأ لعماد أن يدخل من النافذة؛ فلا ينبغي أن يستمع أحد لحديثهما الخطير.